**بسم الله الرحمن الرحيم**

**والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين**

**واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين**

قال الله تبارك وتعالى: **{خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[1].

**البيانُ التفصيلي في تحليل مفاد الآية المباركة:**

لقد استدل بهذه الآية الكريمة على كون الإنسان مجبوراً على القيام بأفعاله؛ باعتبار أنّ المتصرف فيه هو الله تبارك وتعالى، كما هو ظاهر الآية المباركة.

**وفي مقام التعليق على هذا الاستدلال نتعرض لمطلبين:**

**الأوّل**: في تحديد حقيقة الفاعل للفعل البشري.

**الثاني**: في الجمع بين النصوص القرآنية الشريفة.

**المطلبُ الأوّل: في تحديد حقيقة الفاعل للفعل البشري.**

لا إشكال أنّ هناك جملة مِن الأفعال التي تَنْتَسبُ إلى الإنسان كصلاته وطوافه حول الكعبة المشرفة وأكله وشربه وغيرها، فَمَنْ هو الفاعل الحقيقي لهذا الفعل؟ أَ هل هو الله تبارك وتعالى، أم هو الإنسانُ محضاً، أم أنّ لكُلٍّ منهما نصيباً مِن الفاعلية؟

**وهنا اتجاهاتٌ خمسة في تحديد حقيقة الفاعل:**

**الاتجاهُ الأوّل**: وهو قولُ المعتزلة، أنّ الفاعل هو الإنسانُ محضاً.

**بمعنى**: أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي أودع في الإنسان القدرة والاختيار، إلّا أنّ الفاعل بَعْدَ أنْ استودع القدرة والاختيار هو الإنسانُ محضاً، فالفعلُ الصادرُ مِن الإنسان سواءً كان طاعةً أو معصيةً فاعلُهُ هو الإنسانُ محضاً.

[1] سورة البقرة، 7.

**ولكن هذا الاتجاه مُبتلى**؛ بأنّ حاجة العلّة للمعلول حدوثيةٌ وبقائية وليست حدوثيةً فقط، فلو قلنا بأنّ الممكن يحتاجُ إلى الواجب سبحانه وتعالى حاجةً حدوثيةً لتمّ هذا الاتجاه؛ حيثُ إنّ الإنسان يحتاج إلى الله تبارك وتعالى في أنْ يعطيه القدرة والاختيار، وأمّا التصرف التام فهو بيد الإنسان.

**لكن هذا الاتجاه ليس صحيحاً**؛ فإنّ السر في حاجة الممكن إلى الله تبارك وتعالى هي الفقرُ والنقص، وبما أنّ السر ذاتيٌّ في الممكن، فمقتضى كون الإنسان هو عينُ الفقر والحاجة إلى الله تبارك وتعالى أنْ تكون الحاجة إلى الله سبحانه حاجة حدوثية وبقائية؛ فالإنسان مفتقرٌ في كُلّ آنٍ آنٍ للمدد مِن الله تبارك وتعالى.

**ومِن باب التمثيل**: نذكرُ حاجة الضوء للطاقة الكهربائية؛ حيثُ لا يمكن استغناءُ الضوء عن الطاقة الكهربائية آناً ما؛ لأنّ حاجة الضوء للطاقة الكهربائية حاجةٌ فقرية وجودية، كذلك حاجةُ الإنسان إلى الله تبارك وتعالى.

**فلا معنى لأنْ يُقال**: إنّ الفاعل هو الإنسانُ محضاً، مع أنّه لا يَقْتَدرُ على أيِّ فعلٍ في أيِّ آنٍ لولا الإمداد الإلهي، فما ذهب إليه المعتزلة ليس صحيحاً.

**الاتجاهُ الثاني**: وهو قولُ الأشاعرة، أنّ الفاعل محضاً هو الله تبارك وتعالى والإنسانُ مجرد محل لصُنع الحوادث، نظير علاقة النجار بالخشب؛ فإنّ الفاعل محضاً هو النجار وأمّا الخشبُ فهو مجرّد محل لصنع ما يريده النجار فيه.

وهذا ما نقله صاحب كتاب المواقف عن الأشاعرة، حيث قال: (**إنّ أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وتعالى، وليس لقدرتهم تأثير فيها، بل الله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد [تعالى] فيه [أي: في العبد] فعله المقدور مقارناً لهما [أي: يخلق الله بقدرته فعل العبد مقارناً للقدرة غير المؤثّرة التي يخلقها في العبد] ... وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري**)[2].

**وهذا الاتجاه مصادم للوجدان**؛ فإنّ الإنسانَ يرى بوجدانه أنّه ليس مجرّد محل لصنع الحوادث، بل إنّ اختياره وإرادته دخيلةٌ في وجود الحوادث، فيرى أنّ تخطيطه وإعداده وإبرام إرادته هي الدخيلةُ في

[2] المواقف، عضد الدين الإيجي، ج3، الموقف 5، المرصد 6، المقصد 1، ص214.

صنع الحوادث، ولولا ذلك لما تحققت، فكيف يُقال: بأنّ الإنسان مجرّد محل يتصرفُ فيه الله تبارك وتعالى بأنْ يجعله تارةً مُطيعاً، وتارةً عاصياً، وتارةً مصلياً، وتارةً آكلاً، وأُخرى قائماً، فإنّ هذا مصادمٌ للوجدان.

**الاتجاهُ الثالث**: وهو قولُ المتكلمين، أنّ لكُلٍّ مِن الله تبارك وتعالى والإنسان نصيباً مِن الفاعلية، إلّا أنّ مصدر الإرادة للفعل بحيثُ يستندُ الفعل إليه هو الإنسان.

**وبيانُ ذلك**: ما ذكره سيدنا الخوئي (قدس سره الشريف) في كتابه البيان في تفسير القرآن بقوله: **(ولنذكر مثلاً تقريبياً يتضح به للقارئ حقيقة الأمر بين الأمرين الذي قالت به الشيعة الإمامية، وصرحت به أئمتها، وأشار إليه الكتاب العزيز.**

**لنفرض إنساناً كانت يده شلاء لا يستطيع تحريكها بنفسه، وقد استطاع الطبيب أن يوجر فيها حركة إرادية وقتية بواسة قوة الكهرباء، بحيث أصبح الرجل يستطيع تحريك يده بنفسه متى وصلها الطبيب بسلك الكهرباء، وإذا انفصلت عن مصدر القوة لم يمكنه تحريكها أصلاً، فإذا وصل الطبيب هذه اليد المريضة بالسلك للتجربة مثلاً، وابتدأ ذلك الرجل المريض بتحريك يده، ومباشرة الأعمال بها – والطبيب يمده بالقوة في كل آن – فلا شبهة في أن تحريك الرجل ليده في هذه الحال من الأمر بين الأمرين، فلا يستند إلى الرجل مستقلاً، لأنه موقوف على إيصال القوة إلى يده، وقد فرضنا أنها بفعل الطبيب ولا يستند إلى الطبيب مستقلاً، لأن التحريك قد أصدره الرجل بإرادته، فالفاعل لم يجبر على فعله لأنه مريد، ولم يفوض إليه الفعل بجميع مبادئه، لأن المدد من غيره، والأفعال الصادرة من الفاعلين المختارين كلها من هذا النوع. فالفعل صادر بمشيئة العبد ولا يشاء العبد شيئاً إلا بمشيئة الله. والآيات القرآنية كلها تشير إلى هذا الغرض، فهي تبطل الجبر – الذي يقول به أكثر العامة – لأنها تثبت الاختيار، وتبطل التفويض المحض – الذي يقول به بعضهم – لأنها تسند الفعل إلى الله)**[3].

**وتوضيحه**: أنّه لو كانت للإنسان يدٌ مشلولة لا يستطيع تحريكها مهما أراد، واستطاع الطبيبُ بواسطةِ عمليةٍ جراحيةٍ أنْ يبعثَ النشاط والقوة في اليد المشلولة إذا وصلها بطاقةٍ كهربائية، فَقَبْلَ أنْ

[3] موسوعة السيد الخوئي، ج50، البيان في تفسير القرآن، المفسر الكبير آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (قدس سره)، مؤسسة الخوئي الإسلامية، ص89.

تتصل اليد بالطاقة الكهربائية لا يمتلك الإنسان إلّا الاختيار، لكن الاختيار لا يكفي وحده لإيجاد حركة اليد، وإذا اتصلت اليد بالطاقةِ الكهربائية يستطيعُ الإنسانُ أنْ يحرك وأنْ لا يحرك، فالحركةُ بعد الاتصال بالطاقة الكهربائية هل هي صادرةٌ مِن الإنسان محضاً أم أنّ للطاقة الكهربائية نصيباً مِن الفاعلية؟!

**وهذا ما ذهب إليه المتكلمون**، فقالوا: إنّ المقتضي لإيجاد الفعل هو الإنسان؛ لأنّه صاحبُ الإرادة والاختيار، إلّا أنّ إيجاد الفعل يحتاجُ إلى أدواتٍ منها: القدرة والعقل، وهذه الأدوات – كالعقل والقدرة – مِن الله تبارك وتعالى، فإعدادُ المقدمات مِن الله عزّ وجلّ فهو الذي يعطيه القدرة والعقل، ولكن إبرام الإرادة المحركة نحو الفعل بيد الإنسان، فالمقتضي للفعل هو الإنسانُ وإنْ كان محتاجاً إلى أدوات والأدوات مِن الله تبارك وتعالى.

وبهذا المعنى قد فُسرت الروايةُ الشريفةُ الواردةُ عن الإمام أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) كما في الكافي: (**محمّد بن أبي عبدالله، عن حسين بن محمّد، عن محمّد بن يحيى، عمّن حدثه: عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: لا جَبْرَ ولا تَفْوِيضَ وَلكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**)[4]، أي: أنّ للإنسان ولله سبحانه وتعالى نصيباً مِن الفاعلية.

فقوله (عليه السلام): (**لا جبر**) أي: أنّ الفاعلية ليست لله تبارك وتعالى وحده.

وقوله (عليه السلام): (**ولا تفويض**) أي: أنّ الفاعلية ليست للإنسان وحده.

وقوله (عليه السلام): (**ولكن أمرٌ بين أمرين**) بمعنى: أنّ المقتضي لوجودِ الفعل هو الإنسان، وإرادةُ الله تبارك وتعالى بمثابة الشرط؛ لأنّها دخيلةٌ في إعداد مقدمات الفعل، وإلّا فالفاعلُ هو الإنسان.

ولعل هذا ما أشارت له الآية المباركة وهي قوله تبارك وتعالى: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ**

[4] الكافي، للشيخ الكليني، دار الحديث، ج1، كتاب التوحيد، الباب 30 باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، ح13.

**رَبِّكَ مَحْظُورًا}**[5]، فإنّ الإنسان هو الفاعل الذي يريد العاجلة، وكذلك هو الفاعل الذي يسعى إلى الآخرة، والله سبحانه وتعالى هو الذي يجهز له ويمده بالأدوات، فإنّ الأدوات بيد الله تعالى، ولكن الفاعل المريد هو الإنسان واستخدامُ الأدوات بيده.

ومِن الروايات الواردة في تفسير "الأمر بين الأمرين" مرسلةُ محمّد بن يحيى كما في الكافي: **(مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَبْدِاللَّهِ، عَنْ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي عَبْدِاللَّهِ (عليه السلام) قَالَ: لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؟ قَالَ: مَثَلُ ذَلِكَ رَجُلٌ رَأَيْتَهُ عَلَى مَعْصِيَةٍ فَنَهَيْتَهُ فَلَمْ يَنْتَهِ فَتَرَكْتَهُ فَفَعَلَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةَ، فَلَيْسَ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ فَتَرَكْتَهُ كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَهُ بِالْمَعْصِيَةِ)**[6].

ومعنى قوله (عليه السلام): **(مَثَلُ ذَلِكَ رَجُلٌ رَأَيْتَهُ عَلَى مَعْصِيَةٍ)** أي: أنّه مشرفٌ على المعصية، لا أنّه متلبسٌ بالمعصية، وعندما ارتكبها ولَمْ ينتهِ عنها مع أنّه تمّ تحذيره ونهيه كان هو الفاعل لتلك المعصية، فقد فعلها باختياره.

وبغض النظر عن ضعف سند الرواية الشريفة بالإرسال، فإنّ الداعي لنقلها استفادة التشبيهِ، وإلّا فليس دور الله تبارك وتعالى مجرّد التخلية كما هو في المثال الذي نسب للإمام (عليه السلام)، حيثُ إنّ الناهي قد انتهى دوره بمجرّد النهي عن الفعل، حينما رأى إنساناً مشرفاً على المعصية، والفاعل والأدوات وجميع التجهيزات بيد العاصي، وإنّما دور الله سبحانه وتعالى بالنسبة للإنسان أنّ الأدوات منه ومنها العقل والقدرة والمكان والزمان منه تعالى، لا أنّ دوره ناهٍ أو آمر، بل هو سبحانه وتعالى مُوجِدُ الأدوات التي يحتاجُ إليها الإنسانُ لإتيان الفعل، سواءً كان طاعةً أم معصيةً.

**الاتجاهُ الرابع**: وهو قولُ الفلاسفة، أنّ المقتضي هو الله تبارك وتعالى وهو الذي ربط الأفعال بإرادة الإنسان.

بعكس ما ذكره المتكلمون مِن أنّ المقتضي هو الإنسان فهو الذي تصور وخطط وعزم ودفع الموانع، وأبرم الإرادة المحركة نحو الفعل، وكما يعبر المحقّق النائيني وسيدنا الخوئي (قدس سرهما) أنّ

---

[5] سورة الإسراء، 18 – 20.

[6] الكافي، الشيخ الكليني، دار الحديث، ج1، الباب 30 باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، ح13.

القدرة مِن الله سبحانه وتعالى لكن إعمال القدرة وصرفها بيد الإنسان، نظير أنْ تُعطي إنساناً قلماً لكن تحريكه بيد الإنسان.

فالمقتضي بنظر المتكلمين هو الإنسان، لذلك هو الفاعل المسؤول عن فعله هو الإنسان، والله سبحانه وتعالى يجهزه بكامل الأدوات التي يحتاجها الفعل حدوثاً وبقاءً.

**بينما مبنى الفلاسفة**: أنّ المقتضي هو الله تبارك وتعالى، لكنه عزّ وجلّ ربط الإفعال بإرادة الإنسان، بمعنى: أنّ الله تبارك وتعالى هو الخالق الوحيد.

**ويستدلون على مبناهم بالعقل والنقل:**

**أمّا الدليل العقلي**: فإنّ كُلّ فعلٍ يصدرُ مِن الإنسان فهو وجودٌ، ومصدرُ الوجود هو الله سبحانه وتعالى، وإلّا لكان الإنسانُ شريكاً لله جلّ وعلا في صنع الوجود وهو مستحيل.

**وأما الدليل النقلي**: فهو ظاهرُ جملة مِن الآيات المباركة، منها:

1–قوله تبارك وتعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ}**[7]، بمعنى أنّ الله تبارك وتعالى مصدر الوجود حصراً.

2–وقوله عزّ وجلّ: **{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}**[8]، وأمّا الفعلُ الذي يصدرُ مِن الإنسان فقد خلقه الله سبحانه وصنعه في جسم الإنسان، لكن لَمْ يصنعه لا عن إرادةٍ مِن الإنسان؛ وإنّما رَبَطَ صنعه تبارك وتعالى بإرادة الإنسان، فالإرادةُ شرطٌ.

نظير علاقة النار بالإحراق؛ فإنّ النار هي المحرقة؛ لأنّها المفيضة لوجود الحرارة الحارقة، وأمّا اقتراب الجسم مِن النار فهو مجرّد شرطٍ؛ بحيثُ متى اقترب الجسم مِن النار فَعلت النارُ فعلها وأثرت أثرها.

وهكذا علاقة الله سبحانه وتعالى بالإنسان؛ فالله تبارك وتعالى هو المفيض للوجود كفعل الصلاة مِن الإنسان، ولكن إنّما يصنعها الله تبارك وتعالى مِن الإنسان إذا أرادها، فإلارادة مِن الإنسان شرط.

---

[7] سورة فاطر، 3.

[8] سورة الزمر، 38.

فمَن اتجه اتجاه أهل المعقول كصاحب الميزان السيد الطباطبائي (قدس سره) يورد على مبنى المتكلمين أنّ دور الإنسان في الفعل إمّا الصنع ولو بنسبة، **وهذا معناه**: أنّ لله سبحانه وتعالى شريكاً في صنعه، أو أنّ دور الإنسان هو تعلق الإرادة بالفعل فقط، وهذا ما يقولُ به الفلاسفة، ولايتصور شق ثالث.

**ولكن يلاحظ على مبنى أهل المعقول**: إنّ لازمه كون الفعل الصادر مِن الإنسان صورةً وشكلاً هو فعلٌ اختياري، ولكنه حقيقةً ولُباً ليس فعلاً اختيارياً؛ فإنّه كما أنّ الصلاة وجود، ومصدرُ الوجود حصراً هو الله تبارك وتعالى، فالإرادة أيضاً وجود ومصدرُ الوجود حصراً هو الله سبحانه، فهو تعالى كما صَنَعَ صلاةَ إنسانٍ صَنَعَ إرادته، وبالتالي فربط الله تبارك وتعالى إيجادهُ للصلاة مِن الإنسان بإرادة الإنسان لا يجدي في حلّ الإشكال.

**فإنّ نتيجة هذا المسلك**: أنّ المقتضي المُفيض للوجود هو الله تبارك وتعالى ودورُ الإنسان أنْ يختار، إلّا أنّ الاختيار وجودٌ ومصدرُ صُنعه هو الله تبارك وتعالى.

**الاتجاهُ الخامس**: وهو ما يُنسبُ إلى بعض العرفاء، مِن أنّ الفاعل هو الإنسان وهو الله، مِن باب (أنا هو وهو أنا).

**ومعناه**: أنّ الإنسان لما كان بالنسبة لله تعالى كالمعنى الحرفي بلحاظ أنّه عين الربط والفناء في الله تعالى فوجوده مما يمكن أنْ ينظر إليه بمرآتين طريقية وموضوعية:

**المرآةُ الأُولى**: الطريقية، أي: إنْ نظرت إليه بمرآة الطريقية فالفاعل هو الله تبارك وتعالى.

**المرآةُ الثانية**: الموضوعية، أي: إنْ نظرت إليه بمرآة الموضوعية، فالفاعل هو الإنسان.

وما في الواقع أنّ الفاعل واحدٌ.

ومِن الواضح رجوع هذا المبنى ونحوه مِن الكلمات الخطيرة إلى وحدة الموجود وهو بظاهره كفر؛ إذ لا ريب في أنّ في البين وجودين، وجوداً للإنسان – وإنْ كان وجوداً إمكانياً – ووجوداً لله عزّ وجلّ وهو الوجود الخالقي.

**وخلاصةُ البحث**: أنّ الصانع للفعل إنْ كان هو الإنسان، فهذا يعني أنّ الله تبارك وتعالى جهز الإنسان وأعطاهُ القدرة واللياقة والفاعلية فهو الذي صَنَعَ الفعل، غايةُ ما في الباب أنّه لا يمكنه أنْ

يصنع الفعل مِن دون أدواتٍ مِن قُدرةٍ ومِن عقلٍ وغيرهما، وهذه الأدوات مِن الله تبارك وتعالى، كما يعبرُ المحقّق النائيني (قدس سره): "إعمالُ القدرة بيد الإنسان".

وإنْ كان الصانعُ للفعل هو الله عزّ وجل وإنّما صدور الفعل يحتاج مِن الإنسان مجرّد العزم والرغبة، فمتى ما رغب الإنسان وعزم وصمم فالله سبحانه يوجد الفعل، وهذا هو كلام الفلاسفة.

**وقُلنا**: أنّ نتيجة ذلك أنّ الفعل ليس اختيارياً مِن الإنسان، وإنْ كان صورةً فعلاً اختيارياً.

**والصحيح** في تفسير ما ورد في الروايات الشريفة: (**لا جَبْرَ ولا تَفْوِيضَ وَلكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**)[9] هو تفسيرُ المتكلمين؛ فإنّ الفاعل المسؤول عن فعله – ثواباً وعقاباً – هو الإنسان، وسيأتي التعليق الوافي على مبنى أهل المعقول.

**المطلبُ الثاني: في الجمع بين النصوص القرآنية الشريفة.**

**إنّ النصوص القرآنية الشريفة قسمان:**

**القسمُ الأوّل**: ظاهرٌ بدواً في أنّ دور الإنسان هو مجرّد المشيئة لا أكثر، ومِن تلك النصوص:

1 – قول الله سبحانه وتعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[10].

2 – وقوله عزّ وجلّ: **{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا}**[11].

3 – وقوله تبارك وتعالى: **{قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}**[12].

4 – وقوله سبحانه وتعالى: **{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**[13].

5 – وقوله تبارك وتعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**[14].

---

[9] الكافي، للشيخ الكليني، دار الحديث، ج1، كتاب التوحيد، الباب 30 باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، ح13.

[10] سورة التكوير، 29.

[11] سورة الكهف، 23 – 24.

[12] سورة الأعراف، 188.

[13] سورة الأنفال، 17.

فإنّ ظاهر هذه الآيات الكريمة أنّ الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه.

**القسمُ الثاني**: ظاهره استناد الفعل للإنسان، ومِن تلك النصوص:

1 – كقوله تعالى: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}**[15].

2 – وقوله عزّ وجلّ: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**[16].

وعندما نجمع بين الطائفتين مِن الآيات القرآنية عرفاً نصل إلى أنّ المقصود مِن قوله سبحانه: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[17]، وقوله تعالى: **{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ}**[18]، أنّ المشيئة البشرية ليستْ كافيةً في صُنع الفعل وحده بدون شروطٍ وأدواتٍ مِن قِبله تبارك وتعالى، وهذا هو المعبر عنه بمشيئته تعالى: **{إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ}** ولذلك لو أراد سبحانه مَنْعَ الإنسان وحبسه عن الأدوات لحبسه؛ لأنّ الأدوات بيده عزّ وجلّ.

وأمّا قوله تبارك وتعالى: **{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**[19] فظاهرُهُ أنّ الله سبحانه قد تدخل بنحوٍ غيبي في نصرِ المسلمين، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}**[20]، وقال سبحانه: **{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}**[21].

**فعندما نقولُ**: بأنّ الفاعل هو الإنسان لا ننفي أنّ الله تبارك وتعالى أحياناً قد يتدخلُ بيدٍ غيبيةٍ لينصرِ الإنسان كما حصلَ في غزوة بدر وغيرها، فهذا لا ينفي ذلك.

---

[14] سورة النحل، 93.

[15] سورة الإنسان، 3.

[16] سورة الشمس، 7 – 10.

[17] سورة التكوير، 29.

[18] سورة الكهف، 23 – 24.

[19] سورة الأنفال، 17.

[20] سورة آل عمران، 123.

[21] سورة التوبة، 25.

وأمّا قوله تبارك وتعالى: **{يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ}**[22]، فقد ذكرنا فيما سبق أنّ الضمير في "يشاء" يعود للإنسان.

**وقد يُقال**: إنّ ظاهر السياق عود الضمير في الفعل وهو قوله تعالى: **{يُضِلُّ مَن يشاء}** إلى الله تعالى، أي: مَن يشاء الله ضلاله، ويهدي مَن يشاء الله هدايته.

**ولكن**: مقتضى الجمع العرفي بين الآيات أنّ الضمير يعود على الإنسان لا على الله سبحانه؛ فإنّ الله يُضِلُّ إذا شاءَ الإنسانُ أنْ يَضِل والله يهدي إذا شاءَ الإنسان أنْ يهتدي، وذلك نظير قوله تبارك وتعالى: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ}**[23] أي: أنّهم شاؤا الضلالة، ونظير قوله تبارك وتعالى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}**[24] أي: أنّ الجهاد منهم وطلب الهداية منهم.

وأمّا الآية المباركة وهي قوله تبارك وتعالى: **{خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[25]، فقد سبق أنّ في مفادها عدّة اتجاهاتٍ كلها لا تنافي إختيار الإنسان واستناد الفعل إليه، **ومنها**: أنّ نتيجة إرادة الإنسان للضلال أنْ الله خَتَمَ الله على قلبه وعلى سمعه وصارَ على بصره غِشاوة.

**بلحاظ أنّ الذنوب لها أثرٌ دنيوي وأثرٌ أخروي**، فالأثرُ الأُخروي هو قوله تعالى: **{وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**، والأثرُ الدنيوي: **{خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** أي: أنّ نتيجة الذنوب ظلمة تخيم وتستحكم على النفس فلا يُبصر الهُدى، وهذه آثارٌ وضعيةٌ دنيويةٌ للذنوب، قد تزولُ بالتوبة وقد لا تزولُ؛ لأنّ التوبة درجاتٌ وليستْ بمرتبةٍ واحدةٍ.

**فمثلاً**: قد ورد في الروايات الشريفة كما في الكافي: **(علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي الأحمسي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: والله ما ينجو من الذنب إلا من أقر به. قال: وقال أبو جعفر (عليه السلام): كفى بالندم توبة)**[26]. فالإقرار بالذنب درجةٌ مِن درجات التوبة، ولكنها لا

---

[22] سورة النحل، 93.

[23] سورة الصف، 5.

[24] سورة العنكبوت، 69.

[25] سورة البقرة، 7.

[26] الكافي، للشيخ الكليني، دار الحديث، ج4، كتاب الإيمان والكفر، الباب 188 باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها، ح1.

تمحو الآثار الوضعية، بينما الدرجةُ الأخرى مِن التوبة وهي المنظورة في قوله جلّ ثناؤه: **{وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا}**[27] وقوله تبارك وتعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا}**[28] فهي التي يمكن أنْ تُزيل الآثار الوضعية للذنب، وإلّا فإنّ الآثار الوضعية للذنب قد لا تنتهي بمجرّد بكاء الإنسان وحسرته على ذنوبه مِن دون أنْ يكون هناك تجسيدٌ على أرض الواقع مِن الإقلاع عن الذنوب إلى الطاعة.

**والنتيجة**: أنّه لا يصح الاستدلال بهذه الآية المباركة على نسبة الإضلال إلى الله تبارك وتعالى؛ بل ضلال الإنسان وعماهُ راجعٌ إلى اختياره، والاختيار والإرادة وإنْ كان أمراً أعطاه الله سبحانه وتعالى للإنسان وليس أمراً اصطنعه الإنسان إلّا أنّ الفاعلية والصانعية أُعطيت مِن الله تبارك وتعالى للإنسان فكان بيده إعمال القدرة.

**نكتةٌ بلاغية**: إنّ الله عزّ وجلّ قال: **{خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}** فالقلوب جاءتْ بصيغة الجمع، وذكر السمع بصيغة المفرد بقوله: **{وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ}**، ثمّ ذكر الأبصار بصيغة الجمع فقال: **{وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**، ومقتضى السياق أنْ يعبر عن السمع بالجمع؛ لأنّ الحديث عن الجَمْع لا عن مفردٍ؛ حيثُ قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[29].

**فلماذا جَمَعَ القلوب والأبصار وأفرد السمع؟**

**ذكر عدةٌ مِن المفسرين**: أنّ القلوب والأبصار هي باختيار الإنسان، بينما السمع ليس باختياره.

**بمعنى**: أنّه بيد الإنسان أنْ يقفل قلبهُ أو يفتحه فهذا أمرٌ يرجع له، فالقلوب قلوبهم، وبيد الإنسان أنْ يفتح بصره أو يغمضه، وأمّا الصوت إذا وصل فليس بيد الإنسان أنْ يُغلق سمعه أو يفتحه، فإنّ نسبة السمع إلى البشر نسبة متساوية، لا أنّهم يتفاوتون في الاختيار، بخلاف القلوب والأبصار فإنّ نسبتها إلى البشر نسبة متفاوتة يتدخلُ الاختيار فيها.

---

[27] سورة الفرقان، 71.

[28] سورة التحريم، 8.

[29] سورة البقرة، 6 – 7.

كما لو افترض وجود مجموعةٍ مؤلفة من مئة شخصٍ واقفة في مكان واحد فمتى وصل الصوت فإنّ الجميع في استقباله على حدّ سواء في سمعهم، وإنْ كان بعضهم أقوى سمعاً؛ لوجود فرقٍ بين السمع والاستماع؛ فإنّ الاستماع اختياري عند الإنسان وأمّا السمع فليس اختيارياً.

فالاستماع هو أنْ يصغي الإنسانُ للكلام، وهذا باختياره، وأمّا السمع وهو عبورُ الصوت ووصوله إلى موطن ترجمة الدماغ له فليس باختياره.

بينما الأبصار بالنسبة للمرئيات والقلوب بالنسبة للمدركات اختيارية متفاوتة فلذلك عبر عنها بالجمع، بخلاف السمع فإنّه لما كانت نسبته نسبة متساوية للجميع عبر عنه باسم الجنس.

**والحمد لله رب العالمين.**